من رسائل الصيف

الدار المقدسة

[مهداة إلى الانسان الشاعر . .]

للأستاذ عبد الحميد يونس

أخى إبراهيم ...

قرأتُ فيما قرأت أنَّ هناك مرآة مسحورة لا ترى فيها نفسك فى لحظة من لحظات حاضرك أو فترة من فترات مستقبلك ، ولكنك تشاهد فيها شخصك فى برهة واحدة تختارها من ماضيك

وأنا الآن أتمنى كالأطفال أن أحصل على هذه المرآة ، وأن أركب فى هذا السبيل ما ركب أبطال الأساطير من أهوال ، فإن عبور البحر أهون من عبور الزمن إلى الوراء ، وملاقاة المجهول آلم من ملاقاة المعلوم ، واستعادة الذى كان معك ثم ضاع ، أشهى من حصولك على ما لا ترتقبه مما هو آت !...

ودعنى أسائل نفسى وقد تحققت أمنية العثور على هذه المرآة « أى لحظة من لحظات ماضىّ أريد ؟ » ... هى هذه الومضة من ومضات صباى وقد ذهبت إلى بيتنا الجديد ، فلم أنظر إليه إلا بعد أن تمليت من البناء المواجه له ذى النوافذ الشبيهة بنوافذ المساجد ، وكنت أعلم أنه مقام صاحب النظرات والعبرات(١)

هذه الدار أيها الصديق أنفقت ما يقرب من خُمس قرن خلعتُ فيها صباى وسلختُ شبابى ؛ دخلتها تسابقنى آمال عذاب ، وخرجت منها بذكريات أعذب !

وما أظنك نسيت البرج الذى كان يشبه أبراج المتأثر حيث كنت أبشر بالطريقة الإشراقية التى تعلو على الناس وإن لم تنفصل عنهم ؛ وحيث خيّلت إلى نفسى القدرة على مطاردة الأوهام والوسواس والكشف عن الترهات والأباطيل ؛ وحيث ظننتنى أستطيع هداية الضالين ، ولو كانوا من القرصان والمهربين ؛

وحيث رأيتنى أحارب إله الظلام ، فلا أكاد أصرعه حتى أراه يتسلل من الناحية الأخرى !

أو نسيت الغرفة الجرداء التى كنت أستقبل فيها وفود الفكر زمراً تعقبها زمر ، وأفراداً فى إثر أفراد ؛ والتى كنت أمثل فيها خاشماً بين يدى الأنبياء والأولياء والقديسين ؟ وكيف تقاصاها وقد وسعت جمهورية أفلاطون وطوبى مور وجزيرة مكدوجال ؟

أما المقصورة ، فأنت لا تذكرها ، لأنها كانت المكان الحرام الذى مارست فيه فن الحياة ، ومهدت القصائد التى جت بها نفسى ولم تنفرج عنها شفتاى أو يسجلها قلمى ... وجمت فيها بين الملائكة والشياطين ، ولقيت فيها «ليليت» وبناتها ، وتاييس فى انطلاقها وفى توبتها ، وأفروديت فى خلاياها ؛ وسمعت فيها أعذب الثنات وأشهى الضحكات وأعمق الزفرات ... ! هنا ، أيها الصديق ، جنيت تجاربى ، واختزنت ذكرياتى ، وحبست أوهامى ... ! هنا أديت فرائض الشاعر وشعائر الحكيم !

* * *

والخزانة الصغيرة التى كانت وكأنها « باب جحا » لا تكاد تطلب منها شيئاً حتى تراه ؟ ... الخزانة الصغيرة النفيسة التى لم يكن خادمها موكلا بغذاء البطون ، وإنما كان مختصاً بغذاء العقول والقلوب ؟ ... لقد أخذتها معى ، فبطل السحر ، وبقيت الصحائف والرفوف !

وأنت ألم تجلس معى تحت هذا المصباح ؟ أنا موجود وأنت موجود ، والمصباح كذلك موجود ؛ ولكن « التغير » صيرنى شخصاً آخر ، وحولك إلى غيرك ، ونور المصباح فى عيوننا الآن ليس كما كان بالأمس !

واليوم أقتلع من هذه الدار المقدسة اقتلاعاً ، فكم رددت جدرانها صلواتى ، وسمعت ابتهالاتى ، ووعت حكمتى ، وحفظت قصائدى ! وكم انشقت سقوفها عن طيف ، وانفرجت نوافذها عن خيال ، وانفتحت أبوابها حتى لعدو !

ألا قل لهذه الدار المقدسة ألا تبوح بأسرار وجدانى إلا لصاحب وجدان ، وألا تطلع أحداً على خزائن تجاربى إلا إذا كان من زمرة الإشراقيين ، وألا تفتح كنوز ذكرياتى إلا لمن يصلح للقيام على البرج والمقصورة والمحراب !

(١) يقصد بيت المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى .